الفصل الرابع

غانـــدى

١ — غاندى والسلام

لم يفكر « غاندى » فى السلام العالمى فى عشرات السنين الأولى من نشاطه السياسى . ولعله لم يفكر فى هذا السلام العالمى أبداً على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام فى الشرق أو فى الغرب . لكن نشاطه وتفكيره كانا يؤديان بطبعيهما إلى السلام . سواء فى داخل الشعوب ، أوفيما بين الشعوب .

وكان طبيعياً ألا يفكر « غاندى » فى السلام العالمى فى الأطوار الأولى من نشاطه فى جنوب أفريقيا ، ثم فى الهند . ذلك أنه ابن أمة كان يحكمها الأجنبى بالقوة المسلحة ، بعد أن استولى عليها كذلك بالقوة المسلحة . وكان « غاندى » يحسب — إلى ما بعد الأربعين من سنه — أن هذا الحكم الأجنبى قضاء محتوم فرضه القدر على وطنه ، فلا سبيل للتخلص منه ، إنما الخير كل الخير فى مداراتـه لاستخلاص ما يستطاع استخلاصه من براثنه لفائدة الشعب الهندى . فلما رأى هذه السياسة غير المؤدية إلى الغاية المرجوة منها تطور تفكيره شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى ضرورة جلاء بريطانيا عن الهند ، وإلى استقلال هذا الوطن العزيز عليه .

فلما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية بدأ يفكر فى السلام وصيانته تفكيراً يتفق مع دعوته « عدم التعاون فى غير عنف » على أنها أمضى سلاح لتحقيق غرضه الأساسى ، استقلال الهند وحرية بنيها جميعاً .

وقد كان التطور فى التفكير بعض ما تميز به غاندى عن كثيرين من الدعاة وذوى المبادئ الثابتة . صحيح أن أفكاره الأساسية لم تتغير ، بل بقيت ثابتة منذ بدأ جهاده فى جنوب أفريقيا إلى أن مات ، لكن هذه الأفكار الأساسية كانت تصور نشاطه العملى أكثر مما كانت تصور اتجاهاته الذهنية فى رسم المبادئ التى يراها واجبة لخير الإنسانية . أما هذه الاتجاهات الذهنية فكانت دائمة التطور . وأحسبها كانت ستبقى كذلك ، وأن العالم كان يفيد من تطورها الشىء الكثير ، لو أن حياته لم تختم بمقتله ، ولو أنه مد له فى الحياة إلى الأجل الذى كان يرجوه لنفسه .

و« غاندى » يقر هذا التصوير ويقرره . طلب إليه بعضهم أن يكتب رسالة يسرد فيها مبادئه التى تقوم عليها رسالته . فكان جوابه : « إننى رجل عمل ولست رجل فلسفة . وكلما عرضت لى مشكلة رؤيت فيها واستخرت الله وصليت له فهدانى إلى الخطة التى أنتهجها لمواجهة هذه المشكلة ثم وفقنى فى هذه الخطة كل التوفيق » .

لست أقصد من هذا إلى أن آراء « غاندى » واتجاهاته تناقضت أو اضطربت . وإنما أقصد أن هذه الآراء أو الاتجاهات كانت دائمة التوالد . فهو لم يقف قط عند فكرة يكررها ويرددها ، بل كانت أفكاره حية حياة الإنسان وحياة الوجود ، تخلق كل فكرة منها ، فكرة جديدة وخلقاً جديداً يتطوران إلى فكرة وخلق جديدين تتصل كلها بالفكرة الأساسية التى وجهته منذ نشأته السياسية ، والتى لازمته طيلة حياته .

وهذه الفكرة الأساسية تتلخص فى كلمة واحدة : الكرامة الإنسانية ؛ الكرامة الإنسانية لكل رجل ولكل امرأة فى الحياة الفردية الخاصة وفى الحياة العامة ، والكرامة الإنسانية للجماعة فى القرية وفى المدينة وفى الولاية وفى الشعب بأسره وفى الجماعة الإنسانية أينما كان أفرادها وجماعتها . الكرامة الإنسانية يتساوى فيها الجميع بلا فارق بسبب الجنس أواللغة أوالدين أوالطائفة أواللون أوأى اعتبار آخر . الكرامة الإنسانية الأصيلة فى الإنسان بفطرته ومن يوم نشأته أياً كان العمل الذى يزاوله .

لم تكن هذه الفكرة الأساسية التى قامت عليها حياة « غاندى » ، والتى وجهت نشاطه ، نتيجة تفكير طارئ أو نظرة فلسفية خاصة ، بل كانت بعض نفسه وقوام حياته منذ مولده . ترى فى ضوئها ونشأ فى أحضانها . كان أبواه كريمى المحتد ، وكان أبوه حاكماً محبوباً ، وكانت أمه نقية ورعة صالحة . وكان أساس تنشئته الصدق . لما أتم دراسته الثانوية فى الهند وفكر بعض أهله فى إرساله لدراسة القانون فى إنجلترا عارض آخرون ، ثم لم توافق أمه على سفره إلا أن يقطع على نفسه عهداً فى ثلاثة أمور : ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقرب امرأة . وقطع الفتى على نفسه هذا العهد ووفى به لأن الصدق كان بعض فطرته ، فكان يراه من موجبات الكرامة الإنسانية . وكان لا يعدل به لذلك فى الحياة شيئاً .

فلما عاد إلى وطنه محامياً ثم ندب فى قضية إلى جنوب أفريقيا لم يلبث أن واجهته التجربة القاسية الأولى التى وجهت حياته من بعد . كانت القوانين والتقاليد فى تلك البلاد تفرق بين البيض والملونين من سكانها تفرقة تهدر كرامة الملونين ، فلا تبيح لهم أن يتساووا مع البيض

فى المتاع بما يشاءون من ألوان الحياة . وقضت التقاليد أن ينزع « غاندى » من مجلسه فى عربة الدرجة الأولى بسكة الحديد برغم أنه يحمل تذكرتها فأبى فألقى به من القطار فبات على طوار المحطة . وعومل مثل هذه المعاملة حين ركب مع جماعة من البيض عربة تجرها الجياد إلى جوهانسبرج . عند ذلك ثارت نفسه وأخذ يقص على بنى وطنه من الهنود ما أصابه فيبتسمون ثم يجيبونه بأنهم يعاملون بأقسى مما عومل ، وأنهم ألفوا هذه المعاملة ، وينصحون له أن يسكن إليها فلا سبيل إلى خير منها . وازدادت ثورته لما سمع . إن كرامته الذاتية لم تكن وحدها إذن هى التى تهدر ، بل كرامة أبناء وطنه المقيمين فى تلك البلاد ، ومن ثم كرامة وطنه . وكرامة هذه الجماعة الإنسانية الضخمة التى تضم مئات الملايين . كيف لا يدافع قومه عن هذه الكرامة . إن عليه أن يؤلبهم للدفاع عنها وأن يلتمس الوسيلة للظفر فى هذا الدفاع بما يريد .

ولكن ! كيف يؤلبهم . وأى سلاح ينتضيه معهم لمقاومة هذا العدوان على كرامتهم . إنه يعلم وإنهم يعلمون أنهم إن يفعلوا فيخلّوا بالنظام أخذهم القانون بقسوته . ثم أهدرت مصالحهم ، ولم يجد أكثرهم لقمة العيش الذى اغترب عن وطنه فى سبيل الحصول عليها . أفيستطاع والحال هذه جمع كلمتهم ، وبث الطمأنينة فى نفوسهم وحملهم على الدفاع عن كرامتهم الإنسانية ولو فقدوا لقمة العيش . فى هذا فكر « غاندى » . وهداه تفكيره إلى ضرورة إقناعهم جميعاً ، أغنياء وفقراء ، تجاراً وصناعاً وعمالاً ، بأن الكرامة الإنسانية أغلى من المال الذى نكسبه من التجارة ، ومن الجاه الذى نجنيه من الغنى ، ومن لقمة العيش التى يتصبب جبيننا عرقاً فى سبيلها . وإن القوانين والتقاليد إنما تفرض عليهم ما يمرغ كرامتهم

الإنسانية فى التراب لأنهم يرضون تمريغها مقابل ما يناهم من نفع مادى ، وأن الحكومة وجماعة البيض الذين يعاملونهم هذه المعاملة فى حاجة إلى عمل هؤلاء الهنود وإلى مهارتهم فى هذا العمل ، ولولا هذه الحاجة لما أبقوا عليهم ، بل لأخرجوهم من البلاد . وإن عدم تعاون هؤلاء الهنود عمالاً وتجاراً وصناعاً مع البيض ومع الحكومة يشل الحياة الاقتصادية من غير حاجة إلى أية مقاومة إيجابية أو مخالفة للقوانين ، وإن سلطان القانون لا يمكن لذلك أن ينال هؤلاء المعتزين بكرامتهم ماداموا لا يرتكبون إثماً إيجابياً يحرمه هذا القانون ، وإن كرامة هؤلاء الألوف المؤلفة من الهنود رهن إذن بإرادتهم ، فإذا أرادوا المحافظة على هذه الكرامة لم تستطع قوة أن تنزلهم عنها ، بله أن تمرغها فى التراب .

ولكى يكفل النجاح فى تجنيد هذه الألوف المؤلفة من الهنود المقيمين فى جنوب أفريقيا أنشأ للعمال قرى على مقربة من أماكن عملهم ، وعاش هو وزوجته وأبناؤه معهم فيها ، وأنشأ لهذه المجموعة الهندية كلها جريدة تنطق باسمهم وتعلن على الملأ إنكارهم للظلم النازل بهم . بذلك أعد عدته للنضال فى سبيل الكرامة الإنسانية ثم بدأ نضاله السلمى البعيد عن كل مظهر من مظاهر العنف ، وبدأ يعلن فى جريدته أنه وأبناء وطنه لا يطلبون إلا الحق الطبيعى المعترف به لكل إنسان فى كل أمة متحضرة : أن يتساوى أمام القانون وفى الواقع مع غيره فى الحقوق والواجبات فلا يلزم بأداء ضريبة لا يؤديها غيره ، ولا يحرم من الإقامة فى محلة يقيم فيها غيره ، ولا يفرض عليه لون من الحرمان لا يفرض على غيره . بذلك يستطيع التعاون مع سائر المقيمين فى البلاد لخير الجميع . فإذا أبت القوانين أو التقاليد بعد أن تعترف له بهذا الحق فمن واجبه

لكرامته الإنسانية ألا يتعاون مع من يحرمونه من هذه الحقوق ، وأن يقف فى حدود عدم التعاون فى غير عنف ، فلا يخل بالنظام ولا يخرج على القانون . فإن أبت السلطات مع ذلك إلا أن تحرّم عليه عدم التعاون فمن حقه ألا يطيعها ، ولها أن تفعل به ما تشاء . لها أن تزج به فى السجون ، ولها أن تنزل به ما تشاء من عقاب ، فلن يوهن ذلك من عزمه ، ولن ينزله عن إرادته ، ولن يحمله على الخروج على ما أخذ به نفسه من عدم العنف . ولن يلجئه إلى مخالفة القانون .

وكانت هذه هى « الستيا جراها » : قوة الحق الدافعة من غير حاجة إلى أى عنف .

ونجحت الحركة واضطرت السلطات إلى مفاوضة غاندى ، وإلى النزول عن كثير مما كانت تفرضه على هؤلاء الهنود مما لا ترضاه الكرامة الإنسانية .

أترى هذا النضال الذى طال أمده سنوات سلاماً أم دعوة للسلام ؟ لا أظن أحداً من أنصار السلام فى عهدنا الحاضر أو فى العهود السابقة يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب ، بل لعلهم يرون فى هذا النضال نوعاً من التمرد على النظام القائم فى جنوب أفريقيا لا يتصل بالسلام العالمى من قريب أو من بعيد .

ولم يدر بخاطر غاندى أن يطرح على نفسه مثل هذا السؤال . لذلك لم ينكر الحرب التى قامت بين إنجلترا والبوير ، بل أعان فيها الإنجليز بأن أنشأ فرقة إسعاف Ambulance corps لإسعاف جرحاهم فى الحرب

وعاد غاندى بعد ذلك إلى الهند وفكرة الكرامة الإنسانية يتساوى فيها الناس جميعاً هى المتسلطة عليه ، بل لعلها كانت أكثر سلطاناً على

نفسه بعد أن قرأ وهو فى جنوب أفريقيا دعوة تلستوى الاشتراكية ، وبعد أن اقتنع بآراء رسكن بأن خير الفرد يحتويه خير الجماعة . وبأن عمل المحامى وعمل الحلاق متساويان فى الاعتبار فغاية كليهما كسب العيش ، وبأن حياة العمل ، أى حياة الزارع وحياة الصانع ، هى الحياة الحقيقة بالعيش . هذه حقائق آمن بها إيمانه بعدم العنف وبعدم التعاون فى غير عنف ، وبأن الحق وحده منتصر آخر الأمر لا محالة ، على أن يكون صاحبه صادق الإيمان به ، متخذاً إياه إمامه فى تفكيره وقوله وعمله فلا يمارى فيه نفسه ولا غيره ولا يتخذه أحبولة لغاية يبطنها ويظهر غيرها ، بل يسلك سبيله المستقيم إلى الغاية التى يريد بلوغها .

عاد إلى الهند ولم يلبث بها طويلاً حتى كانت نذر الحرب العالمية الأولى ، حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ تقترب . فلما نشبت الحرب لم يفكر غاندى فى تجنبها ، أو فى إنكارها ، بل اندفع يدعو أبناء وطنه إلى الجندية فى صفوف الإمبراطورية البريطانية ، يرجو بذلك أن تفيد الهند لحريتها يوم تضع الحرب أوزارها . فلما انتصرت بريطانيا فى هذه الحرب ثم لم يتحقق لوطنه ما كان يرجوه عاد يفكر فى نضال الإمبراطورية الظافرة فى الحرب ليستخلص من بين براثنها حرية هذا الوطن العظيم العزيز .

لم يفكر « غاندى » إذن فى السلام العالمى يوم نشبت تلك الحرب التى خاضت الولايات المتحدة غمارها وشعارُها أن تحارب للقضاء على الحرب وعلى فكرتها فى العالم a war to end all wars . وأخذ غاندى يناضل الإمبراطورية الظافرة فى الحرب بسلاحه وهو عدم التعاون فى غير عنف non-violent non-cooperation إيماناً منه بأن الهند على حق ، وبأن سلاح الحق أمضى سلاح ، وبأنه سلاح القوىّ المؤمن

بقوته الإنسانية ، قوة الإرادة التى لا تقهر وأنه لذلك أعز من القوة المادية قوة السلاح المخرب والقتال . فما دمنا نأبى أن تهدر كرامتنا ، وما دمنا لا نتعاون مع من لا يحفل بهذه الكرامة ، فلن يستطيع أحد أن يقهرنا ، وإن استطاع أن يضعنا فى السجون وفى المعتقلات . وإن استطاع أن يقتلنا ونحن وقوف على أقدامنا نرفض الإذعان له والركوع أمامه .

واستجابت الهند كلها لدعوة « غاندى » وناضلت الإمبراطورية العظيمة فى غير عنف ومن غير حقد . فقد كان غاندى يرى الحقد ضعفاً كالعنف سواء بسواء .

استجابت الهند إذن لدعوة « غاندى » لأنها رأته صادقاً كل الصدق فى احترام الكرامة الإنسانية لبنى وطنه جميعاً ! حتى لقد ناضل أبناء وطنه أنفسهم إذ كانوا يفرقون فى اعتبار هذه الكرامة بين طائفة من أبناء الوطن وطائفة أخرى . فقد كان فى الهند بضع عشرات من الملايين « منبوذون » لا تقربهم طائفة من طوائف الهند الأربعة ولا يقربونها ، حتى لكان خيال المنبوذ نجساً يجب التطهر منه ، ولكان الماء الذى يشرب منه المنبوذ نجساً كذلك يأبى غيره أن ينال منه ريه . بل لقد كان من هؤلاء المنبوذين من لا يستطيع الظهور نهاراً لأن منظره كان نجساً فلا يصح أن تقع عليه عين أحد من غير أبناء طائفته . وقف غاندى إلى جانب هؤلاء المنبوذين ونادى بأنهم إخوانه وإخوان كل هندى أياً كانت طائفته . بل لقد كان فى تجواله الدائم فى أرجاء الهند المختلفة يقيم بين هؤلاء المنبوذين ولا ينزل إلا فى أحيائهم . وكثيراً ما كان يصطحب صبياً من أبنائهم فى زياراته لأتباعه من الطوائف الأخرى . ذهب مرة إلى صديق له من الطوائف العليا ومعه صبى منبوذ لا يؤاكله ولا يشاربه ولا يتصل به أحد ،

فضاق أهل الصديق بالصبى ذرعاً ، ومرض الصبى فإذا « غاندى » يقيم إلى جانب سريره يمرضه . كيف والمهاتما يصنع هذا الصنيع يضن الآخرون بمثله . واضطر أهل البيت جميعاً – على مالطائفتهم من علو المنزلة – أن يصنعوا صنع المهاتما العظيم وأن يسبغوا على الطفل المنبوذ عنايتهم حتى أبل من مرضه ، ثم كانوا من بعد البر به والمحبة له كأنه أحد أبنائهم ، بل من أحب أبنائهم إليهم .

وهذا الإكرام الذى أسبغه « غاندى » على المنبوذين سموا بالكرامة الإنسانية للناس جميعاً عن كل معنى من معانى التفاوت قد كان له الأثر الأكبر فى استجابة الهند لدعوة غاندى . فقد شعرت الطوائف كلها بأن الفوارق التى أقامتها عشرات القرون بينها تنهار ، فإن الدعوة الجديدة لحرية الكافة يتمتع بها كل فرد حقيقة بأن تجمع أبناء الهند كلها ، وهم أربعمائة مليون* فى صعيد واحد ، متساوين فى ظل الوطن وإن اختلفت نحلهم وأهواؤهم ومنازلهم وما يزاولون من عمل .

واستجابت نساء الهند لدعوة « غاندى » كما استجاب إليها رجالها . ذلك أن المرأة الهندية كانت من الرجل بمنزلة الرقيق كشأن المرأة الأوربية من الرجل فى العصور الوسطى . كانت تدفن حية معه إذا مات ، وكانت تعامل فى حياته على أنها خادمه وخادم أولاده . وقد ارتفع بها غاندى إلى مستوى من الكرامة الإنسانية يعادل مستوى كرامة الرجل ، وجعلها عديله فى الكفاح لكرامة الوطن والنضال من أجل حريته . فكان لها فى معارك عالم التعاون فى غير عنف مكان كمكان الرجل أو أعز من مكانه فى بعض الأحيان ، وجعل لها من الاحترام فى الحياة الاجتماعية ما لم

* يبلغ عدد سكان الهند الآن حسب آخر الإحصائيات حوالى ٥٩٩ مليونا

يفكر فيه رجل أو امرأة فى الهند قبله . وما لم يفكر معه أحد فى اقتحام أسوار التقاليد القديمة التى كانت تفرض على المرأة عبوديتها للرجل

بذلك كله اجتمع أربعمائة مليون أو يزيدون حول هذا الرجل النحيل العظيم المجاهد فى سبيل الكرامة الإنسانية للفرد وللجماعة وللشعب كله . وبهذا وقفت الهند كلها عزلاء من السلاح فى وجه الإمبراطورية البريطانية العظيمة تقاوم بسلاح المثابرة فى سبيل الدفاع عن كرامة الإنسان وكرامة الوطن بعدم التعاون ، فى غير عنف ومن غير حقد ، مع المعتدى على هذه الكرامة .

ولم يكن هذا النضال سلاماً أو دعوة إلى السلام على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام . ولكنه كان نضالاً يؤدى بطبيعته – على ما سنرى – إلى السلام ، على أن يكون سلام الأحرار لا سلام العبيد .

لم يعلن « غاندى » إلى سنة ١٩٣٠ أنه يطمع من نضاله هذا فى أكثر من بلوغ الهند مرتبة الحكم الذاتى . ولعل تفكيره الذى تطور من معاونة إنجلترا فى حرب البوير إلى تجنيد الهند إلى جانبها فى الحرب العالمية الأولى لبلوغ هذا الحكم الذاتى – حتى لقد منح من أجل ذلك مدالية قيصر الهند – قد كان يطمئن ويرضى لو أن الحكومة البريطانية أجابت رغبته . فلما لم يبلغ من ذلك لوطنه ما أراد نادى بالاستقلال التام للهند فى سنة ١٩٣٠ ، وطالب البريطانيين بالجلاء الكامل عنها وأذاع كلمته المشهورة : « افعلوا أوموتوا Do or die » . بذلك تطور تفكير المهاتما فى تصوير الغاية من نضاله ، وإن بقى سلاحه فى هذا النضال هو عدم التعاون فى غير عنف ، مع تطور هذا السلاح كذلك فى صور كانت تتعدى فى بعض الأحيان دعوته فيشوبها من العنف مالا يرضى عنه ، فيصوم تكفيراً عن خطأ الذين أخطأوا ، فيرد صيامه المخطئين إلى سوابهم .

وكان العنف يقع أكثر الأحيان بسبب مبالغة السلطات البريطانية فى قمع الحركات الاستقلالية الخالية من العنف . لكنه كان يقع فى بعض الأحيان بين طوائف الهنود أنفسهم بسبب الخلافات الدينية والمذهبية . ولقد وقع غير مرة بين المسلمين والهندوس وكان دامى الآثار . فى هذه الأحيان كان « غاندى » يصوم ويطول صيامه تكفيراً عن خطأ هؤلاء وأولئك . وفى هذه الأحيان جميعاً كان صومه يقمع العنف ويرد السلام يرفرف لواؤه على المتخاصمين .

ولم يكن غاندى يتحيز قط لبنى دينه ، كما أنه لم يكن قط يتحيز للمسلمين ، ذلك بأنه كان عظيم التسامح ، وكان يحترم الأديان جميعاً أصدق الاحترام ، وكان يرى لذلك فى ارتداد الرجل عن العقيدة التى نشأ عليها ما لا يتفق والكرامة الإنسانية . حاول بعض المبشرين حين مقامه فى جنوب أفريقيا أن يقنعوه باعتناق المسيحية ، وأعطوه الأناجيل فقرأها وأعجب بما فيها من دعوة للحب والسلام ، واشتد إعجابه « بنداء الجبل The sermon on the mount . حيث يقول المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ، ثم اعتذر مع إعجابه هذا من الاستجابة لدعوة المبشر الذى دعاه إلى المسيحية بأن فى دين قومه ما يتفق ودعوة المسيحية للمحبة والرحمة والسلام ، وبأنه لذلك لا يرى أن يخالف قومه عن عقيدتهم وهو منهم ، ومنهم آباؤه وأجداده وأصدقاؤه وأولياؤه . وكثيراً ما كان يشير إلى الأخوة الإسلامية إشارة إجلال وإكبار . لذلك كان يمقت التعصب أشد المقت ، وكان يرى ما يقع من عنف بسبب اختلاف العقيدة الدينية إثماً جديراً بالتكفير عنه . أما هؤلاء الذين يلجأون إلى العنف فهم لا يدركون خطيئتهم ليكفروا عنها ، فليكفر هو عن خطيئتهم

بالصوم ليردهم إلى حمى الحق والتسامح والإخاء ، وينبههم إلى أن الأديان جميعاً تحفظ على الإنسان كرامته ، وتهديه السبيل لخيره ، ولرضا الله عنه ، وأنها جميعاً تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والسلام .

وكانت المحبة عنوان الكرامة الإنسانية فى كل تعاليمه . ذلك بأنه كان يرى الحقد والكراهية ، كما كان يرى العنف ، ضعفاً غير لائق بهذه الكرامة ، ويرى الضعيف بحقده أو كراهيته أو بعنفه حقيقاً بالإشفاق ، على أن لا يكون إشفاق ازدراء أوتحقير ، بل إشفاق محبة وحرص على علاج هذا الضعف . لهذا كان يناضل البريطانيين من غير أن يحقد عليهم أو يكرههم ، بل كان يحرص على أن يتفاهم معهم كلما وجد منهم استعداداً للتفاهم ، فإذا لم يصل من هذا التفاهم إلى تحقيق ما يريد عاد يناضلهم فى غير حقد ولا كراهية ، مؤمناً بأنه سيبلغ يوماً غايته ويحقق استقلال بلاده ، وبأن البريطانيين سيجلون عن الهند من غير أن تكون فى نفسهم مرارة ضد الهنود ، أو أن تكون فى نفس الهنود مرارة ضد البريطانيين .

وأساس المحبة التضامن فى سبيل المصلحة العامة . أما التنافس فى سبيل المنافع الخاصة فيخلف الاحتكاك وما يؤدى إليه من حقد وموجدة . والناس إنما يتنافسون على المنافع المادية يريدون الاستكثار منها بما يضر روحانيتهم ، ومن غير أن تكون لهم بهذا الاستكثار حاجة . ولو أنهم حرصوا على السمو بروحانيتهم حرص الغربيين اليوم على المتاع بماديات الحياة لاستمتعوا بالحياة أضعاف ما يستمتع بها محب أعباء المادة ، ولكانوا إخواناً متحابين يربط التضامن بينهم بأوثق رباط .

والتنافس يؤدى إلى الحقد وإلى الموجدة ، لأنه يؤدى إلى استغلال عمل الغير لفائدة المستغلين ، وهو ينطوى لذلك على ظلم يثير نفوس من يستولى غيرهم على جانب من ثمرة عملهم باسم الفائدة على رأس المال أو بأى اسم آخر . فأما الحق عند غاندى فذلك أن ينال كل ثمرة عمله وليحصل على أسباب عيشه ، وهذا ما يسميه هو : العيش العمل .

هذه مبادئ غاندى التى رتب عليها نتائجها . ومن هذه النتائج عداؤه الصريح للصناعات الكبرى ، ودعوته الصريحة للعمل اليدوى ، واتخاذه عجلة النسيج اليدوى عنواناً لدعوته ، واكتفاؤه فى الحياة بما يقيم الأود ليستطيع بعد ذلك أن يستمتع من نعيم الحياة الروحية بأوفر نصيب .

وإنما تبلغ الشعوب المرتبة السامية التى تؤدى إليها هذه المبادئ عن طريق التربية والتعليم . ولهذا وضع « غاندى » برنامجاً خاصاً للتعليم بدأ يطبقه فى المحلات التى أنشأها ، وفى بعض مدن الهند لتكون نموذجاً يحتذيه غيرها حين يرون نتائج هذه التربية وهذا التعليم .

* * *

كيف تؤدى تعاليم « غاندى » ووسائله إلى السلام داخل الشعوب وفيما بين الشعوب ؟

لما تلبد جو أوربا بنذر الحرب فى صيف سنة ١٩٣٨ حين أراد « هتلر » أن يضم جانباً من تشيكوسلوفاكيا إلى أرض الرايخ الألمانى ، كتب « غاندى » يدعو التشيك إلى عدم مقاومة « هتلر » بالسلاح إذا حاولت جيوشه أن تحتل بلادهم ، وأن يقاوموه بعد ذلك على طريقة « غاندى » : عدم التعاون فى غير عنف ، والعصيان المدنى إذا اقتضى الأمر هذا العصيان . ووجه « غاندى » رسالته إلى « هتلر » نفسه ينبهه فيها عن الالتجاء إلى

العنف . كما وجه إلى البريطانيين رسالة كالتى وجهها إلى التشيكوسلوفاكيين . ولم تنتج رسائل غاندى هذه ، بل وقعت الكارثة . واكتوى العالم بنيران الحرب منذ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وهو لا يزال إلى اليوم يعانى من آثارها ما يكاد يدفع إلى حرب عالمية ثالثة ضروس .

وما دهى « غاندى » بلغ من التفاؤل أن ظن أن تعاليمه يمكن أن تؤتى ثمرتها فى غير الهند لمجرد رسالة يبعث بها إلى التشيك أو إلى « هتلر » أو إلى البريطانيين . وإنما تؤتى هذه التعاليم ثمرتها رويداً رويداً بانتشار المبادئ التى أوجزناها عن طريق التربية والتعليم والدعاية ، فإذا بدأت تستقر فى النفوس وتطمئن لها العقول اتجه العالم كله وجهة جديدة تسمو بالروح إلى المكان الواجب لها فى الحياة الإنسانية ، ويومئذ تخضع المادة لحاجات الروح ، بدل أن تخضع الروح لإغراء المادة ولمتاعها الكاذب الغرور .

وإنما تؤدى تعاليم « غاندى » بطبيعتها إلى السلام لأنها تقضى على أسباب الحرب والنزاع ، ما كان صحيحاً منها وما كان مفتعلاً لمجرد الدعاية وإثارة النفوس لخوض غمار الحرب .

كان الدين من أسباب الحرب فى عصور كثيرة . وقد ثارت الحروب الصليبية فى القرون الوسطى باسم الدين ، على الرغم من أن « المسيح » صاحب الصليب كان من أكبر دعاة السلام فى العالم . ومن قبل ذلك قامت الإمبراطورية الإسلامية فى أطوارها المختلفة على أسنة الرماح ، مع أن القرآن يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . ومن أسف أن هذه العقلية المنافية لتعاليم الأديان كلها ظلت عالقة بالنفوس ، حتى لقد قال المارشال « أللنبى » قائد الجيوش البريطانية التى دخلت بيت المقدس فى سنة ١٩٣٨ : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

ولعل إدراك « غاندى » لهذه الحقيقة هو الذى دعاه بعد أن استقلت الهند واختارت نطاق الكمنولث البريطانى ليقول ، يوم اشتد الخلاف بين الهند والباكستان على كشمير ، إنه على مقته الحرب وعدم تسليمه بجوازها ، يخشى أن تصبح بين الدولتين ضرورة لا مفر عنها . وقد أوخذ بهذا الرأى الذى ينافى مبادئه ، وظن بعضهم أنه كان أولى به أن يصوم ليجنب الدولتين مثل هذا الاحتمال المخوف بالنسبة لهما جميعاً .

انتهت الحروب الصليبية . والحروب والمذابح التى وقعت فى أوربا المسيحية بسبب الخلاف المذهبى معروفة . والتعصب أهم الدوافع التى تحرك الجماهير لمتابعة الدعاة إلى الحرب باسم الدين ولو لم يكن الدين هو الدافع الحقيقى لهذه الحرب . وقد قضت تعاليم « غاندى » على هذا السبب من أسباب الحرب . فالأديان عنده كلها مقدسة ولا يجوز من ثم أن يتعصب أحد لدين على دين ، أو أن يقاتل نصرة لدين على دين . وهذا التسامح الذى نادى به « غاندى » ، قد نادى به من قبل « فولتير » واعتبره أساس السلام فى العالم . لكن أحداً لم يسمع لفولتير لأنه لم يكن متديناً ، بل كان حر الفكر ، متهماً فى دينه به ، موصوماً بالإلحاد . أما غاندى فكان متديناً مسلماً نفسه لله فى كل أعماله وتفكيره . فدعوته إلى التسامح الدينى دعوة صادقة خالصة لوجه السلام ، دعوة مصدرها الروح المتصل بالملإ الأعلى ، وليس مصدرها مجرد الحرص على الحرية العقلية . ولهذا نجح « غاندى » إلى مدى بعيد فى القضاء على الثورات والمذابح الطائفية التى كانت تقع فى الهند الحين بعد الحين ، مع ما بين الهند وأوربا من فرق فى الثقافة يحمل أوربا أكثر مما يحمل الهند على التسامح الدينى .

وتذهب كثرة المؤرخين إلى أن الدين اتخذ فى الماضى كما تتخذ الحرية والديموقراطية اليوم وسيلة للدعاية للحرب ودفع الناس إلى مجازرها ، وأن السبب الحقيقى للحروب قد كان السبب الاقتصادى . وليس شك فى أن هذا السبب الاقتصادى هو الدافع الأقوى والمحرك الأول للحروب ، وأن ما يختلط به بعد ذلك من عوامل دينية أوجنسية أوسياسية يستطاع التغلب عليه من غير حرب لولا هذا العامل الاقتصادى . وهذا ما أدركه « غاندى » وعالجه بوسائله المختلفة .

وأول هذه الوسائل السمو بالحياة الروحية سمواً بالكرامة الإنسانية عن أن تخضع لإغراء المادة على نحو يذلها . ولقد كان مثله الذاتى وإيمانه الراسخ هما الحجة الملموسة الدامغة على أن المتاع الروحى أعظم من كل متاع ، وأنه وحده هو الذى يجعل للحياة قيمتها ، والذى يبلغ بالإنسان من القوة إلى حيث لا تغلبه قوى الأرض مجتمعة . وأى مثل فى هذه القوة الروحية كمثل حياة « غاندى » إلا أن تكون حياة الأنبياء والقديسين . فهو رجل ألقيت تحت أقدامه الجواهر ، وقدم إليه البريطانيون أنفسهم أسباب الجاه والسلطان ، وكان فى مقدوره أن يبلغ كل ما يطمع أكبر الأغنياء وأعظم ذوى الجاه والسلطان بلوغه ، فازدرى هذا كله ، وعاش عيش الفقراء . وآثر حياة المنبوذين سكناً له . ولم يحفل بالسجن ولا بالموت . وكان مع ذلك لا يعرف الحقد ، بل يحب الناس جميعاً ، ويحب خصومه بل أعداءه ، ثم كان فى نظر الإنسانية كلها الإنسان المثالى الذى يطمع أعظم الملوك فى أن يبلغ بعض ما بلغ ، أليس ذلك دليلاً على أن المال وما يتيحه من المتاع المادى ليس إلا متاع الغرور والزخرف الباطل فى الحياة .

وإذا كان ذلك شأن الفرد فهو كذلك شأن الأمة . فالأمة المستغنية عن غيرها ، المحافظة على كرامتها القومية والإنسانية ، القانعة بمواردها القادرة على استثمار هـــذه الموارد دون حاجة إلى الغـير هى الأمة التى تستطيع أن تقاوم غيرها من غير عنف ، فلا يجد هذا الغير وسيلة لاستغلالها ، ولا خير له من ثم فى بذل النفقات لإخضاعها . فإذا سلكت الأمم كلها هذا السبيل وقاومت من يحاول استغلالها بالوسائل غير العنيفة التى سلك « غاندى » سبيلها لم يبق لأمة فى الحرب مصلحة ، ومن ثم كان ذلك سبيل السلام العالمى .

وقد صورنا من قبل طرفاً من الوسائل التى دعا إليها « غاندى » لإدراك هذه الغاية . فعدم التعاون فى غير عنف والعصيان المدنى والإضراب والمقاطعة . كل ذلك فى غير عنف أيضاً . والارتقاء بالشعب عن طريق التربية والتعليم ليدرك ما للروح من قوة لا تغلب . فإذا امتثلت الشعوب هذه الآراء والمبادئ فجرت فى أوردة حياتها ، وتيقن البغاة أن لا فائدة يجنونها من وراء التغلب عليها ، زالت الحروب بزوال أسبابها .

يبدو جلياً مما تقدم أن « غاندى » سلك فى تعاليمه وفى وسائل نضاله سبيلاً يؤدى إلى السلام من غير أن يسلك الطريق الذى سلكه دعاة السلام من قبل . وهذه التعاليم وهذه الوسائل كلها نضال فى سبيل السلامة الإنسانية كيما يستقر فى العالم سلام الأحرار لا سلام العبيد . فلم يكن « غاندى » يعرض سلاماً كالسلام الرومانى Paxa Romana تفرضه أمة غالبة على أمة مغلوبة ، فإن حاولت إحدى هذه الدول الإخلال بهذا السلام جردت الإمبراطورية قواتها لتعاقب الأمة المتمردة ولتردها إلى حمى الطاعة والإذعان . ولم يكن « غاندى » يعرض سلاماً أساسه الخوف من الحرب

وأهوالها وكوارثها ، فمثل هذا السلام تضطرب قوائمه إذا استطاع العلم يوماً أن يبدع الوسائل لاتقاء هذه الأهوال والكوارث . ولم يكن غاندى يعرض سلاماً لقارة كأوربا يمكنها أن تتحكم فى غيرها من القارات على نحو ما كانت روما تتحكم فى عهد ذلك السلام الرومانى ، بل كان لا يرضى عن عبارة « آسيا للآسيويين » إذا قصد بها اعتزال آسيا من سواها من قارات العالم . لأن الاعتزال لم يكن سلاماً فى نظره .

لم يكن « غاندى » يعرض هـذه الصور للسلام ! على حين كانت مثله وكانت تعاليمه ورسائله دعوة لسلام بطبيعتها . فالسلام على ما يفهمه أهل الشرق والغرب جميعاً هو النقيض للحرب التى يعرفونها . الحرب التى يستبيح فيها الإنسان قتل الإنسان للاستعلاء عليه واستغلاله . الحرب التى تعد لها كل دولة من آلات التدمير والفتك ما تقابل به أمثال هذه المعدات عند غيرها من الدول . وما أيسر ما تقول كل دولة إنها تحارب دفاعاً عن نفسها ! أو نصرة لغضبة السلام ، أو لغضبة الحرية والعالم الحر ، أو لمثل ذلك من الدعايات المختلفة . أما « غاندى » فينكر هذه الوسائل كلها ، وهو مع ذلك رجل نضال فى سبيل الحرية والكرامة الإنسانية . وهو يرى قوة الحق لذاته . وقوة الروح الممتلئة إيماناً بهذا الحق ، أمضى من كل سلاح وأكفل ببلوغ النصر . وحسبه دليلاً على صدق نظريته ووسائله أن بلغ بها الغاية التى قصد إليها من تحرير الهند ، تلك القارة التى تضم نحو أربعمائة مليون من البشر . فحررها من فوارق الطبقات ، وحررها من التعصب الدينى ، وحررها من كل صور التفرقة بين الأجناس والألوان ، والرجال والنساء ، وبلغ بها إلى الأغراض التى احتوتها وثيقة حقوق الإنسان كما وضعتها الأمم المتحدة من بعد ، ثم

حررها من الاستعمار البريطانى ، وبلغ بها إلى مكان العزة والكرامة فى حمى الاستقلال والحرية .

* * *

ولنلخص الآن ما سبق عن تعاليم « غاندى » والوسائل التى اتبعها لتحقيق تلك التعاليم ، من حيث اتصالها بفكرة السلام فيما يلى :

١ – السلام الحقيقى هو سلام الأحرار لا سلام العبيد . واطمئنان هذا السلام داخل حدود الدولة الواحدة يكفل السلام فى علاقات الدول بعضها مع بعض .

٢ – الحرية الحقيقية هى حرية الروح فى إيمانها بالحق الذى تقتنع به وتطمئن إليه ، وليست حرية المتاع المادى الذى يضل الروح عن طريق الحق .

٣ – قوة الروح المستمدة من الحق أمضى من كل سلاح ، لأن صاحبها لا يعبأ بما يصيبه فى سبيل هذا الحق ، ولو كان ما يصيبه هو الموت .

٤ – الأديان كلها تمثل الحق الذى يلهمه الله من يختارهم من عباده المصطفين ، وكلها تدعو إلى المحبة والسلام ، فلا يمكن أن تقوم حرب لنصرة دين على دين ، لأن الحرب تتنافى بطبعها مع المحبة والتسامح والسلام .

٥ – كل عمل شريف ما دام نزيها . والعمل هو الذى يجعل لصاحبه الحق فى العيش وفى الحياة ، وكل من يعيش بغير عمل يسلب العامل عرق جبينه ويسلبه لذلك حريته ، ويمهد من ثم لاضطراب السلام .

٦ – الاستعمار و« الأمبريالزم » استغلال شعب لشعب بغير حق ،

وهما لذلك من أسباب الحرب ما بقيا فى العالم ، فيجب القضاء عليهما قضاء مبرماً .

٧ – من اليسير نضال الاستعمار بغير عنف ومن غير حقد عن طريق عدم التعاون ، والإضراب ، والمقاطعة والعصيان المدنى وكل وسائل النضال البعيدة عن العنف ، والمستندة إلى الحق وحده .

٨ – التربية والتعليم من الحقوق الأولية للجميع ، وهما لذلك من أسس السلام ما قاما على قواعد سليمة .

٩ – يجب أن يكون الاكتفاء الذاتى أساس الاقتصاد القومى فى الزراعة والصناعة ، وأن يكون التبادل التجارى مؤيداً لهذا الاكتفاء الذاتى فلا يخنى عليه بحال .

١٠ – التعاون دعامة الاقتصاد القومى ، كما أن عدم التعاون فى غير عنف سلاح النضال القومى فى سبيل الحرية السياسية والكرامة الإنسانية . والناس أحرار ما تعاونوا متحابين .

١١ – واجب الدولة أن ترعى هذه المبادئ دون أن تتدخل بالعنف فى الشئون العامة . بل يجب أن ينظم الناس فيما بينهم هذه الشئون عن عقيدة واقتناع وإيمان .

هذه هى التعاليم الأساسية التى يقوم عليها السلام فى رسالة « غاندى » . وهى لا ريب تعاليم سامية حقيقة بكل إجلال وإكبار ، جديرة بأن تؤدى إلى الغرض الأسمى – السلام – إذا طبقت على وجه صحيح .

* * *

الفكرتان الرئيسيتان عند « غاندى » هما فى رأيى الصدق والكرامة الإنسانية . فالصدق عنده لا يعنى قول الحق فحسب ، بل هو يقصد الحق فى التفكير ، وفى القول وفى العمل جميعاً . ومن السهل أن نتفق على الأفكار مادامت مجرد أفكار أومبادئ نناقشها ، فإذا جاء وقت التطبيق ثارت الخلافات فى التفسير والخلافات فى الرأى إلى أن تطرح الفكرة نفسها جانباً .

فنحن نذكر ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين وضع الرئيس « وودرو ويلسن » مبادئه الأربعة عشر ، واتفق العالم أجمع على أنها سوف تكون ذات نفع عظيم للإنسانية كلها . فلما اجتمع مؤتمر السلام فى فرساى وبدأ يبحث فى كيفية تطبيق هذه المبادئ تعددت الخلافات بين الأعضاء فاستغرقت منهم معاهدات السلام ستة أشهر . وانى لمتفق تماماً مع مولانا أبو الكلام أزاد بأنه من خلال هذه المعاهدة التى قصد بها إقرار السلام بعد الحرب العالمية الأولى بذرت بذور الحرب العالمية الثانية .

لقد عقدت اجتماعات عديدة سواء عن طريق الأمم المتحدة أو اليونسكو حول موضوع التوتر الذى نبحثه اليوم . كما أعلنت بشأنه كثير من التصريحات الخلابة . فها هو ذا كتاب عن اجتماع عقد فى سنة ١٩٤٨ ضم ثمانية من كبار علماء الاجتماع فى الدول المختلفة ، شيوعية وديمقراطية غربية ، وأصدروا بياناً مشتركاً ، وكانت لديهم الأمانة الكافية ليذكروا أنه « على الرغم من اتفاقنا على البيان فى مجموعه وفى

نشر هذا البحث عن مجموعة مكتبة هيكل بالإنجليزية فى القاهرة سنة ١٩٥٣

كثير مما احتواه من بنود ، وتطبيق هذه البنود ، إلا أننا نختلف بشأن الأثر الذى سينجم عنها » . كانت هذه الفكرة عن الصدق فى الفكر وفى القول وفى العمل مركزاً لأفكار غاندى وأساساً لها ، وهذه الفكرة نفسها هى التى ستؤدى بنا إلى السلام العالمى .

والفكرة الثانية ، وأعتقد أنها أهم ما فى خطة « غاندى » كلها ، فكرة الكرامة الإنسانية للأفراد والكرامة الإنسانية للجماعات . فإن حملته الأولى فى جنوب أفريقيا كانت أولاً فى سبيل كرامته الإنسانية ثم فى سبيل الكرامة الإنسانية لمواطنيه فى هذا الجزء من العالم . فقد كانت التفرقة الظالمة التى تتبعها حكومة جنوب أفريقيا إذلالاً للهنود فيها سبباً لثورة « غاندى » . وهو لم يثر من أجل ذاته فحسب وإنما بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون عليه التعاون بين هؤلاء الألوف من الهنود وبين الحكومة وهم يلاقون منها أسوأ المعاملة ؟ كيف يستطيعون التعاون مع أشخاص لا يحترمون الكرامة الإنسانية ؟ . . . من هنا انتهى غاندى إلى فكرته حول « الساتيا جراها » و « الأهيمسا » ، Satia graha, Ahimsa – فشهد جنوب أفريقيا بذلك مولد تلك الأفكار .

فلما عاد إلى الهند دفعته فكرته الجديدة عن الكرامة الإنسانية إلى الحملة على التفرقة القائمة فيها بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند ، تلك الحملة العظيمة حقاً . نحن نتساوى جميعاً ، ولدنا متساوين فوجب أن نحيا متساوين كذلك . يجب ألا يكون هناك منبوذون وغير منبوذين . وذلك ما بدأ « غاندى » حملته الكبرى من أجله .

ولم يقم « غاندى » هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية للدفاع عن المنبوذين فقط ، بل كانت لديه كذلك فكرة الأخوة بين الناس أياً

كان دينهم وأيا كانت أفكارهم ، وهى الفكرة التى أدت به إلى التسوية فى المعاملة بين جميع أعضاء المجتمع الهندى سواء كانوا من الهندوس أو من المسلمين أو المسيحيين أو أى شىء آخر ما داموا مخلصين فى إيمانهم وفى صلاتهم .

هل لى أن أذكر أن احترامه البالغ للكرامه الإنسانية دعاه إلى الوقوف ضد ضخامة الآلات لأنه رأى الذين يعملون فى تلك الصناعات الكبيرة يتحولون إلى مجرد أدوات فيها ، فتزول عنهم صفة الإنسان المفكر بنفسه ، ليندمجوا فيها فيصبحوا كأسنان التروس . وتنطبق هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية على نشاط « غاندى » كله . وهى تعتبر فكرة الأفكار فى حياته . كيف يستطيع أحد أن يتعاون مع غيره مادام هذا لا يحترمه ؟ وكيف يعمل الناس للنفع العام والبعض منهم يحترمون دون البعض ؟ والواقع أن فكرة كرامة العمل أوشرفه مما يتصل بتلك الفكرة الرئيسية عن الكرامة الإنسانية ، وأعتقد أن ذلك ما عناه صديقنا الأستاذ « همايون كبير » حين قال إننا يجب أن نفكر فى تحديد للثروة فردية كانت أوجماعية ، بحيث توضع هذه الحدود على الجانبين : حدود لضآلة الثروة وحدود لضخامتها . فلن تتحقق لك الكرامة الإنسانية مادمت لا تستطيع أن توفر قوتك وقوت أسرتك عن طريق عملك . كما أنه لا يتفق مع الكرامة الإنسانية أن تظل أنت عاطلاً فى الوقت الذى تستغل فيه رفيقك لمتاعك الخاص .

هاتان الفكرتان – الصدق والكرامة الإنسانية – هدتا « غاندى » إلى أن يصوغ ما أسماه « ناى تاليم » . Nai Talim ، ومقتضى هذه الطريقة أنه يجب أن يراعى فى تربية كل شخص أن يمكن من العمل بيديه وبرجليه وبكل أجزاء جسمه . والهدف من ذلك تهذيب أخلاقه وهداية مداركه إلى فهم أسلم للأمور . وإننى مع ذلك لا أتفق مع « غاندى »

فيما يتعلق بالتعليم الجامعي حيث تتخصص الجامعات فى بعض فروع البحث ، ولكني متفق معه تماماً فيما يتصل بالتربية الابتدائية والثانوية .

وبعد ، فهل لى أن أرجع قليلا فأذكر أن الواقع فى هذا العالم أننا نستطيع أن نتعاون ، ونحن نتعاون فعلا ، على أساس احترام العمل الإنسانى ما دام شريفاً — فلتكن محامياً أو لتكن حلاقاً أو ليكن لك أى عمل آخر فعملك محترم من الجميع مادام شريفاً ، شأنك فى ذلك شأن الناس جميعاً .

لو أننا استطعنا أن نغرس تلك الأفكار فى أذهان الناشئة : فكرة احترام العمل الإنسانى ، والكرامة الإنسانية والأخوة بين الناس أيًّا كانت معتقداتهم ، فإنى أعتقد أنه يمكننا أن نصل بالفكر فى البلاد المختلفة إلى حالة تؤدى بنا إلى التعاون المشترك فى سبيل نفع الإنسانية كلها . وقد وضعت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ إعلاناً لحقوق الإنسان وعلى رأسها مبدأ الكرامة والمساواة الإنسانية فكم أود لو دعت هذه المنظمة الدول كلها إلى الأخذ بالأفكار التى وردت به . والأمم المتحدة تستطيع أن تحقق نفعاً كبيراً فى هذا الصدد ، إلا أن أمراً يحول بينها وبين النجاح فيه ، أعتقد أنه عدم توافر الثقة بين أعضائها ، بالإضافة إلى أنها لم تصبح عالمية بعد ، كما ينبغى أن تكون . وإننى مدرك تماماً لعظمة هذه المنظمة وكونها أمل الإنسانية فى السلام المنشود ، كما أننى معترف بما حققته من إنجازات هامة خصوصاً وقوف الدول الصغيرة فى وجه الدول العظمى وإعرابها عن كل ما تريد .

وهذان الأمران مع الأسف مازالا حتى وقتنا الحاضر يعوزان الأمم المتحدة . وان كلاماً كثيراً قد يقال حول حق النقض (الفيتو) ولكن

الذى لا أفهمه أبداً هو أن يكون قبول أعضاء جدد فى الأمم المتحدة رهناً باستعمال هذا الحق .

فقد يتفق جميع الأعضاء على أن دولة تطرق أبواب المنظمة الدولية تعتبر محبة للسلام ، وأنها قد تكون عضواً نافعاً جداً ، ثم نجد مع ذلك فى الجانب الآخر من يقول : « سأستعمل الفيتو إذن ، فأنا لا أستطيع قبول هذه الدولة » . وإن بيننا فى هذا الاجتماع أعضاء ينتمون إلى دول ما تزال خارج عضوية الأمم المتحدة . ونحن فى الاتحاد البرلمانى الدولى الذى أتشرف بعضويته نقبل الدول البرلمانية كافة ونجد من المفيد حقاً الاستماع إليها ، ولقد كانت الدول الشيوعية إلى سنة ١٩٤٩ موجودة هناك ثم انسحبت لأمر لا أعلمه ، إلا أن ما تأثرت له حقاً هو ما كان يحققه اشتراك هذه الدول من فائدة . فقد أتونا بأفكار جديدة ، وتعاونوا جدياً مع سائر أعضاء الاتحاد البرلمانى الدولى فى مسألة السلام وغيرها . وإننى أعتقد أن مثل ذلك سوف يحدث فى الأمم المتحدة لو أنها أصبحت يوماً عالمية تضم أمم العالم كافة دون تفرقة .

والأمر الآخر هو تخلف ثقة أعضاء الأمم المتحدة بعضهم ببعض فى الوقت الحاضر . ولقد أسعدنى ما سمعت بالأمس من مستر « باندیت » التى عادت لتوها من الأمم المتحدة ، من أن الأمور تتحسن فى صدد هذا الذى كنا نشكو منه . وأقصد بذلك مخالفة بعض الدول على الدوام لإحدى الكتل ، ومخالفة بعضها الآخر على الدوام أيضاً الكتلة الأخرى . إن كثيراً من الدول الصغيرة تصبح الآن ، لا أقول أقوى عسكرياً ، بل أقول أقوى معنوياً ، فتقول ما تعتقد أنه الحق ، والحق وحده هو الذى يدعو الأمم المتحدة إلى التعاون فيما بينها ، لأنه ما دام أحد يعتقد أن زميله إلى جانبه

لا يقول ما يعتقد أنه الحق ، لأى اعتبار من الاعتبارات ، قوميا كان أو غير ذلك ، فإن زميله المندوب الآخر سيشعر بأن عليه أن يجد طريقاً مناسباً للإجابة ، فلا يواجهه – بدوره – بما يؤمن بأنه الحق .

ولو أننا أردنا أن نصل إلى حالة للفكر كالتى أرادها « غاندى » ، صادقة للغاية ، وأقصد بذلك الصدق فى القول وفى العمل ، فنتمكن من أن نقول فى منظمة الأمم المتحدة ما نعتقد ، وأن نتصرف على أساسه ، فأظن أننا بالغون إذن حالة من التعاون المشترك تكون للإنسانية ذات نفع عظيم .

ليس لدى اقتراحات محددة أقدمها إلى أعضاء هذا الاجتماع المحترمين ، ولكنى أعتقد أن هاتين الفكرتين : الصدق والكرامة الإنسانية باعتبارهما المثل الرئيسية لغاندى ستنفعنا كثيرا ، وستساعدنا أجل المساعدة فى عملنا من أجل السلام .

٢ – أساليب غاندى وكيف تخفف التوتر داخليا ودوليا *

إلى أى مدى نستطيع فى الحالة الحاضرة للفكر الدولى أن نطبق وسائل « المهاتما غاندى » وأساليبه لإزالة التوتر فى العالم ، داخلياً كان هذا التوتر أو دولياً . ذلك ما نحاول أن نجد له جواباً .

ولو وجب أن يبدى هذا الجواب فى مطلع القرن الحاضر ، فإننى

* ترجم هذا الجزء أيضا عن محاضرة للدكتور هيكل بالهند .

لى شك من أنه كان ليصدر على وجه إيجابى . صحيح أن « غاندى » بدأ حملته ضد المعاملة الجائرة للهنود فى جنوب أفريقيا فى الحلقة الأخيرة من القرن التاسع عشر . وصحيح كذلك أنه لقى بعض النجاح هناك ، إلا أن الاعتقاد بجدوى طريقته فى حل الأزمات الدولية ، فى ذلك الوقت الذى كانت تسود فيه سياسة توازن القوى والسلام المسلح لهو أقرب إلى الأحلام .

و« غاندى » نفسه لم يفكر أول الأمر فى « الأهيمسا » وفى « الساتياجراها » كسلاح فى الحياة الدولية ، بل كأدوات لإجبار الحكومة وسلطات جنوب أفريقيا على أن تبتعد إلى أقصى ما تستطيع عن التفرقة المزرية التى تخضع لها مواطنيه . وهو لم يفكر فى تلك المرحلة فى استخدام هذه الوسائل لتحقيق استقلال أى بلد من البلاد ، بل إنه على العكس اعتقد ، كما كان الكثيرون من ذوى التربية الغربية فى الشرق يومئذ يعتقدون ، أن الحضارة الشرقية قد اندثرت نهائياً ، وأن العلم والفكر الغربيين سيظل لهما دائماً مركزهما السامى ، وهذا الاعتقاد هو الذى أدى به أثناء حرب البوير إلى تنظيم فرقة إسعاف تساند القوات البريطانية المشتبكة فى الحرب ، وظل على موقفه هذا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى فبذل أثناءها العون الكبير لإنجلترا وحلفائها بتجنيد الهنود للمحاربة فى صفوفهم .

ولقد أبرزت الحرب العالمية الأولى تغيرات هائلة فى الفكر الدولى ؛ فقد أيقنت الولايات المتحدة الأمريكية أن عزلتها لم تنجها من خطر هجوم الغواصات الألمانية ، فاشتركت عند ذلك فى الحرب بجانب إنجلترا وحلفائها . ولقد ظن الرئيس « وودرو ويلسن » يومئذ أن بلاده تحارب من أجل إنهاء الحروب كافة . فلما شعر بانكسار ألمانيا اقترح شروطه للصلح مقتنعاً

بأن معاهدة للسلام تقوم على أساسها كفيلة بأن تقود الإنسانية إلى عصر السلام الدائم . وكان حق الشعوب فى تقرير مصيرها أحد شروط هذا الصلح . ونقف هنا لنجد نقطة تحول فى حياة غاندى وفى نشاطه السياسى ، هى كذلك نقطة تحول فى تصوير آمال الشعوب المستعمرة التى تنشد الحرية والاستقلال . فقد جعل « غاندى » رسالته تحرير الهند من الحكم الأجنبى مستخدماً فى ذلك تعاليمه الخاصة : « الأهيمسا » و « الساتياجراها » ، باذلاً فى هذا السبيل أعظم الجهد ، فظل ينشر ويشرح أساليبه فى عدم العنف ، وقوة الحق ، وعدم التعاون ، مدى ثمان وعشرين سنة كاملة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . وبفضل التطور الجديد للفكر الدولى كسبت الهند استقلالها على يد « غاندى » وجهود الشعب الهندى .

والتطور فى أفكار « المهاتما غاندى » — منذ حملته فى جنوب أفريقيا حتى استقلال الهند — عظيم حقًّا مع أن أساس هذه الأفكار لم يتغير طوال تلك الفترة . فقد كان هدفه الأول فى جنوب أفريقيا أن يعترف الجميع ، وأن يحترم الجميع الكرامة الإنسانية دون اعتبار لجنسية أو مذهب أو لون أو لغة أو حالة اجتماعية أو اقتصادية أو أية عوامل أخرى أدت وما تزال تؤدى إلى خلق الأزمات الاجتماعية والدولية .

فلما عاد إلى الهند أقنعه التطور العالمى للفكر الدولى نحو الحرية بأن الكرامة الإنسانية لا تتوافر لشعب تحكمه أمة أخرى ، وأن حرية الأمة أول شرط لاحترام كرامة أبنائها . وفكرة الاحترام الواجب للكرامة الإنسانية ليست من صنع « غاندى » بل هى قديمة قدم الفكر الإنسانى نفسه . فقد اعتبرتها الأجيال كافة حقيقة حيوية أساسية ، كررت التصريح بها فى بداية كل عصر جديد . وقد رأينا أن جميع الحركات الدينية والحركات

السياسية تضع على رأس مقرراتها ، وبين قواعدها الأساسية ، إعلاناً لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية هي الأساس الذى تقوم عليه .

ويكفى أن نذكر إعلان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ . والإعلان الأخير لحقوق الإنسان الذى أصدرته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ، ومع ذلك فقد عانت الكرامة الإنسانية وما تزال تعانى سوء العذاب فى الحياة العملية . وما صدر عنه غاندى منذ ستين عاماً فى حملته الأولى فى جنوب أفريقيا ، لا يزال يدرج فى جدول أعمال الأمم المتحدة عاماً بعد عام منذ إنشائها .

من السهل أن نضرب الأمثلة لذلك فى مناطق أخرى فى العالم . فكيف يمكن أن تغتفر ديموقراطيات اليوم هذه الحقيقة الواضحة . وكيف يمكن أن نحفظ للكرامة الإنسانية احترامها . ذلك ما كان يتساءل عنه « غاندى » ، وهو ما نتساءل نحن عنه اليوم .

إن جذور الشر منذ أبعد الأزمنة كامنة فى النطاق المادى من الحياة ورغبة الإنسان فى استغلال الإنسان ، تلك الرغبة التى تسربت من الأفراد إلى الجماعات والأمم ، وأدت إلى عوج فى تفكيرنا لم ينج منه المجال الدينى نفسه . لما غزا المسلمون العراق فى القرن السابع الميلادى ، ورأى القائد العظيم « خالد بن الوليد » ثروات هذه البلاد ، قال لجنوده : إنى أرى خيرات هذه البلاد كافية لحملكم إلى الحرب فى سبيلها ولو لم تكن جهاداً فى سبيل دين الله . ولقد ذكرت الانسيكلوبيديا بريتانيكا فى حديثها عن الحروب الصليبية فى القرون الوسطى : « لم تكن الكنيسة تستطيع من خلال الحروب الصليبية أن تهدئ غريزة الحرب لدى مجتمع إقطاعى إلا أنها كانت تستطيع أن تتابع هدف السياسة التى وضعتها ، وأن تحاول نشر

النصرانية ولو على أسنة الرماح فى شتى أنحاء العالم المعروف . بذلك تجدد على نطاق أوسع الصراع القديم الذى لم يخمد أبداً بين الشرق والغرب » .

ظلت حالة الفكر هذه تمارس تأثيرها فى طرق تفكيرنا ومعاشنا ، بل كان لها هذا التأثير نفسه فى طرق التربية عندنا . فقد أثيرت مسألة تدريس التاريخ أمام لجنة الشئون الثقافية والإنسانية فى اجتماع مجلس الاتحاد البرلمانى الدولى فى نيس منذ ثلاثة أعوام ، وأقدمت يومئذ على القول بأن الطريقة التى يدرس التاريخ بها تهيئ أذهان النشء للحرب ؛ إذ يذكر لهم أن تاريخ البشرية إن هو إلا تاريخ المعارك الحربية . وإن أكبر المجد هو مجد القواد والملوك الظافرين ، على حين أن التاريخ الحقيقى للبشرية هو تاريخ التطور السلمى الشاق المتواصل للأخلاق والفلسفة والعلوم والفنون وجميع مجالات النشاط المفيد للسلام . وانتهيت إلى أن تدريس التاريخ من هذه الوجهة أقرب إلى الحقيقة وأجدى فى إقرار السلام فى العالم . ولشد ما دهشت لأن كثيراً من أعضاء اللجنة اعتبر منهجى هـــذا خياليًّا ، فترك الموضوع لمزيد من البحث .

هذه الرغبة فى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان أدت إلى تقوية الأنانية فى ماديات الحياة على حساب جانبها الروحى والأخلاق . ولقد كان ذلك أشد وضوحاً فى الحياة الدولية ، وكان هو السبب فى صعوبة تدوين القانون الدولى . ولقد اقترح تدوين القانون الدولى فى أول مؤتمرات الاتحاد البرلمانى الدولى لما بعد الحرب الذى عقد فى القاهرة فى أبريل سنة ١٩٤٧ حيث تأجل نظر الموضوع إلى مؤتمر العام التالى الذى انعقد فى روما سنة ١٩٤٨ . وكل ما استطعنا أن نصل إليه فى تلك السنة هو تدوين بعض مبادئ الأخلاق الدولية التى أرسلناها إلى الأمم المتحدة للمعاونة على وضع نظام لتقنين

القانون الدولى ، ذلك النظام الذى لم يكن قد تم إعداده بعد ولو أن مبادئ الأخلاق الدولية حلت محلها لكتب فى تاريخ الجنس الإنسانى بذلك فصل جديد .

والفكرة الأساسية للكرامة الإنسانية التى كافح « غاندى » من أجلها قضية جلية اعترف بها الجميع وهى حقيقة نخلص لها جميعاً ، وجدير بنا أن ندافع عنها ، فكيف يمكن أن يكون هذا الدفاع ؟

لقد اقترح « غاندى » فى ضوء التطور الجديد للفكر الإنسانى برنامجاً موسعاً يحيط بجميع ميادين النشاط الإنسانى من أخلاقية وثقافية واجتماعية واقتصادية وتربوية وما إليها . ويتناول هذا البرنامج كذلك العلاقات الدولية ، ولكن على نطاق أضيق بكثير ، ويلقى كثير من أجزاء هذا البرنامج قبولا عالمياً ، ولكننى فى ريب مع ذلك أن تلقى بعض أجزائه الأخرى ، خصوصاً ماتعلق منها بالنظرية الاقتصادية ، مثل هذا القبول . قد تكون (اسواد يشى) Swadeshi والمغزل صالحين أخلاقياً ، ولكن العلم ليس له أن يسير إلى الوراء ، كما أن أفكاره المتعلقة بالتربية وطريقته التجريبية Project-method عظيمة مالم تتخط حدود التعليم الابتدائى والثانوى . لكننى أشك كثيراً فى إمكان التوصل إلى Swadeshi وإلى الاكتفاء الذاتى لإحدى الدول حتى فى الحاجات الأولية للحياة فى الظروف الحاضرة للاقتصاد العالمى المعاصر . كما أننى أشك فى استطاعة التوصل إلى إمكان تطبيق الطريقة التجريبية فى الجامعات . إلا أن برنامجه الأخلاقى عظيم حقاً ، فهو مساهمة كبرى لتحسين حياة الإنسان .

والسمة الأصيلة فى طريقة « غاندى » هى احترامه لجميع الأديان وحملته الكبرى ضد التفرقة بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند — إننى لشديد الإعجاب

بتلك النظرية الدينية ؛ فهى ليست مجرد التسامح ، بل هى أكثر من ذلك ، إنها أخوة حقة ؛ فأنت تستطيع أن تدعو الله على طريقة أجدادك أو على أية طريقة اخترت . وأنت أخ لكل من يدعون الله أيًّا كان ما دمتم جميعاً مخلصين فى إيمانكم ودعائكم ، لأن الله هو الحق . والحق هو الله فى جميع الأديان . وفى أثناء قراءتى لغاندى أوقفتنى كثير من أفكار الجيتا حول الدين لمشابهتها لمبادئ إسلامية مماثلة ، فكلاهما مثلا يقرر أن إيمانك لا يكتمل حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك . وهذه القاعدة الأخلاقية ذاتها موجودة فى المسيحية مثل وجودها فى الديانات الأخرى ، وكذلك بالنسبة لسائر القواعد الأخلاقية المتعلقة بالحقيقة والسلوك وحياة الأسرة وما إلى ذلك . فنحن نطبق نفس القواعد الأخلاقية السامية الشائعة بين دياناتنا جميعاً ، والتى تنطوى بذاتها على عوامل وحدتنا وتآخينا ، فلماذا نستبدل هذا التآخى بانسياقنا وراء النوافه التى تفرقنا وتسوقنا إلى الأزمات والحروب .

ولو أننا أخذنا فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى بنفس مبادئ الحق والإيثار وإنكار الذات التى ينبغى أن نأخذ بها فى المجال الروحى والأخلاق ، وطبقنا تلك المبادئ بكل إخلاص ، لزالت معظم الأزمات واستطعنا بذلك أن نعيش إخوة فى عالم ينعم بالسعادة والرخاء إلى أقصى ما يستطيع النعيم . من السهل أن يقتنع الجميع بقبول هذه القواعد وبالرضا عنها ببيان ما يكسبونه من تطبيق أسلوب « الأهيمسا » و « الساتياجراها » ، وإلا فإن أسلوب عدم التعاون فى غير عنف سيقنع الجميع ، متى تحقق ، بالحاجة إلى احتذاء المثل الذى اتبعه المجموع .

إن فاعلى الشر كانوا دائماً أقلية ضئيلة فى المجتمع ، ولكنها أقلية نشيطة استطاعت أن تجبر الأغلبية المسالمة على التسليم بنشاطها . ولقد أثبتت أعمال

« غاندى » أن أقلية تعمل للحقيقة بغير عنف لقادرة على أن ترغم الأغلبية على قبول عقائدها .

هل يمكن تطبيق هذه المبادئ فى الحياة الدولية ، وهل يمكن العمل بها فى الأمم المتحدة وفى المنظمات المرتبطة بها ؟ إننى لواثق من إمكان ذلك . ولو حدث هذا فإن الأمم المتحدة هى التى ستتولى -قبل أية منظمة أخرى- قيادة العالم إلى السلام ، شريطة أن تصبح عالمية تضم أمم الأرض جميعاً .

إن جميع البلدان ، وحسنى النية من الرجال والنساء فى جميع أنحاء العالم يتوقون إلى السلام ، وسوف يسعدهم أن يطبقوا هذه المبادئ أملا فى أن تؤدى بهم إلى السلام الدائم .

وفى مثل هذه الحال فإنهم يسمون جميعاً فوق جميع الاعتبارات القومية . ولكن السبب فى عدم تطبيق هذه المبادئ فى الأمم المتحدةهو عدم توافر الثقة بين أعضائها ، والاعتقاد السائد بأن ذلك الذى يتكلم هناك ليس مؤمناً بأن ما يقول هو الحق ، وإنما هو يحاول أن يخدع زملاءه مندوبى الدول الأخرى وأن يمارسهم .

إن الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، هى الكفيلة بإنقاذ العالم من الكوارث التى تعلقت بها رؤوسنا : قوة الحق ، قوة الروح ، « الساتيا جراها » على طريقة « غاندى » هى وحدها علاج انعدام الثقة . ويوم يثق أحدنا بالآخر ، ويوم نعتقد صادقين بأن كل واحد يقول ما يؤمن بأنه الحق ، سنتمكن من أن نتعاون معاً وأن نشترك فى تمهيد الطريق إلى حركة عالمية لبلوغ المثل العليا ، ولإيجاد حكومة عالمية وسلام دائم .

ولو أن بلداً صغيراً أو كبيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، ظل يرفض أن يتعاون

صادقاً مع الآخرين فإن لنا فى أسلوب « غاندى » فى عدم التعاون فى غير عنف اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً لأداة فعالة لرد هذا البلد إلى طريق الحق . وإننى لمقتنع أن مثل هذه الأداة لن تفشل وأنها ستعيد أكثر البلاد عناداً إلى الطريق الصحيح . فإذا فشلنا برغم ذلك ، وإذا جاءت الحرب برغم كل هذه الجهود ، فإنها ستأتى بنهاية الإنسانية . وليكن أملنا ألا يجازف أى رجل أو امرأة فى العالم فيضطلع بمثل هذه المسئولية الجسيمة بأن يرفض هذا التعاون ، حتى نبلغ الهدف العزيز : السلام العالمى .

٣ — حول الهند

منذ عهد غير بعيد كنا إذا ذكرت الهند حسبناها من البعد عنا بحيث لا يجول بخاطر أحد منا أن يفكر فى زيارتها أو يمر بخاطره أن هذه الزيارة مما يدخل فى حيز الممكنات ، وكان عامتنا حين يذكرون بلاد العجائب يذكرون الهند والسند وبلاداً تركب الأفيال ، فلما انقضت الحرب العالمية الأولى وبدأت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ بدأنا نسمع فى مصر عن أنباء حركة « المهاتما غاندى » فى الهند ونرى وجوهاً للشبه غير قليلة بين حركتنا وحركة الاضطراب ومقاطعة البضائع الأجنبية ، وعدم التعاون وما إلى ذلك من شئون قربت فى أذهاننا بين تلك البلاد وبلادنا ، ودلتنا على أن ذلك الذى كنا نتصوره من قبل من بُعْد بلاد الهند عنا لم يكن مرجعه إلى ما يفصل بيننا وبينها من آلاف الأميال ، وإنما كان مرجعه إلى جهلنا أمرها ،

وعدم وقوفنا على شئونها ، فلما بدأنا نقف على بعض هذه الشئون قربت منا ، لأن العلم يقرب بين الإنسان وما يعرف ، فى حين يباعد الجهل بين الإنسان وما يجهل .

وازدادت حركة الهند الاستقلالية نشاطاً وقوة ، وازددنا تتبعاً لها ووقوفاً على الكثير من أمرها ، فازددنا قرباً منها . وزاد فى هذا القرب أن رأينا الهند تعنى من شئون ما يجرى فى محيطنا بما نعنى به نحن ، وتشاركنا فى آلامنا وآمالنا . لما ألغت تركيا الخلافة الإسلامية بعد أن أقصت سلاطين آل عثمان عن عرشها بدأت فى العالم الإسلامى حركة تفكير قوية فى هذا الأمر الذى كان يعتبر يومئذ حيوياً عند جميع المسلمين وكانت جمعية الخلافة فى الهند أقوى مظهر لهذه الحركة . ولم يكن ذلك عجباً ومسلمو الهند يبلغون يومئذ مائة مليون ويؤلفون أكبر كتلة إسلامية فى العالم كله . لكن العجب فى اشتراك الهنود غير المسلمين مع الهنود المسلمين فى حركتهم هذه وتأييدهم لها حرصاً على وحدة الهند . وكان طبيعياً يومئذ أن تتطلع الأنظار هنا فى مصر ، وأن تتطلع أنظار المسلمين فى شتى بقاع العالم ، إلى هذه الحركة الهندية الإسلامية وإلى تأييد « المهاتما غاندى » وأنصاره من الهندوس لها ، وأن يقرب ذلك بين الهند والعالم الإسلامى كله ، وأن يدفعنا هذا التعاطف إلى الشعور بأن الهند ليست بعيدة عنا بقدر ما كنا نتصور . وهل يقرب بين الناس شىء كاشتراكهم فى العواطف إزاء أمر بعينه . وهذا الاشتراك فى العواطف يمحو الأبعاد وإن بلغت ألوف الأميال ، وعشرات الألوف من الأميال .

فلما نجحت الحركة الاستقلالية فى الهند زاد نجاحها فى قربها منا نحن معشر الذين يطلبون الحرية والاستقلال للشعوب جميعاً ، وبخاصة

لأن الهند قارة أو شبة قارة كما يسمونها ، ولأن استقلال أربعمائة مليون من البشر يمثلون خمس الإنسانية فى مجموعها يعتبر نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً للحرية والاستقلال وللكرامة الإنسانية ولكل المعانى الإنسانية السامية .

وبدأ العرب يكشف لنا عما فى الهند من قيم روحية وخلقية عليا ، كما كان جهادها فى سبيل الاستقلال مثلا فذًّا فى تاريخ الجهاد الإنسانى للحرية ، وبدأنا بذلك نشعر أن هذه البلاد المترامية الأطراف ذات الماضى المجيد والفلسفة الروحية السامية جديراً حقًّا بأن نزورها وأن نشهد ما فيها وأن نقف على حاضرها وماضيها .

لذلك لم أتردد حين وجهت إلى حكومة الهند الدعوة للاشتراك فى الندوة التى تعقد فى نيودلهى لدرس ما كان لتعاليم غاندى وأساليبه العملية من أثر فى توثيق العلاقات الإنسانية فى داخل الأمم وبين الأمم بعضها وبعض ، فقبلت الدعوة لأول ما عرضت على ، وأخذت أدرس حياة غاندى وتعاليمه ، وأقف أثناء هذه الدراسة على شىء غير قليل عن حياة الهند فى ماضيها وحاضرها . وأهيئ نفسى للوقوف على ما هناك من ألوان الحياة ومظاهرها فى هذا العالم الجديد الذى لم يتح لى من قبل أن أتصل به أو أقف عليه .

وترتب على قبول الدعوة أن عرفت أن الطائرة تقطع ما بين القاهرة وبومباى فى عشر ساعات . وكذلك سافرت إلى الهند فقضيت بها خمسة أسابيع ، من ٣١ ديسمبر إلى ٣ فبراير الماضى . وفى هذه الأسابيع الخمسة شهدت الشىء الكثير مما يسرنى أن أحدثكم الآن عنه .

على أنى أبادر إلى القول بأننى لم أتنقل خلال ربوع الهند طيلة هذه الأسابيع الخمسة . فقد كانت ندوة « غاندى » معقودة فى نيودلهى .

وكان مقرراً أن يمتد انعقادها من ٥ إلى ١٧ يناير ، فكان لزاماً أن نقيم بعاصمة الهند طوال هذه المدة . فلما انتهت الندوة تنقلت أنا وصديقي الدكتور « أحمد متين دفترى » رئيس وزراء إيران السابق خلال الهند طيلة الأسبوعين اللذين بقيا من إقامتنا فى ربوعها . فلما فرغنا من تجوالنا السريع فى أرجائها قفلنا عائدين معا حتى نزلنا بغداد ، ليسافر هو منها بعد أيام إلى طهران ، ولأسافر أنا منها بعد أيام كذلك إلى القاهرة .

* * *

الطبيعة أول ما يلفت نظر السائح فى بلاد غير بلاده . وكثيرون يظنون أن الهند بلاد جميلة كسويسرا أو كلبنان . ويغريهم بهذا الظن أن بها جبال الهيملايا حيث تقوم قمة إفرست أعلى قمة فى جبال العالم . ويظن آخرون أن الهند بلاد الغابات والأدغال الموحشة التى تغطى عشرات الآلاف من الأفدنة ، وأنها تحوى من الوحوش أمثال الأسد والنمر والفهد ما يخافه الإنسان . يغريهم بهذا الظن ما كتبه الرحالون الإنجليز وغير الإنجليز عن صيد الوحوش فى الهند . وكلا هذين الظنين لا يصور الواقع من أمر الهند فى مجموعها . صحيح أن الجبال تمتد فى شمال الهند وتقوم حاجزاً منيعاً بينها وبين جاراتها من الأمم الأخرى . ولكن طبيعة الهند فيما سوى هذه المنطقة الشمالية طبيعة سهلة تشبه طبيعة وادينا المصرى فى كثير من الأحيان . والمرتفعات التى تقوم على الساحل الهندى ليست جبالا عالية عظيمة الارتفاع ، بل هى فى كثير من الأحيان هضاب لا يزيد ارتفاع الكثير منها على الجبال المحيطة بوادينا والتى تفصل بينه وبين صحرائنا الشرقية وصحرائنا الغربية . صحيح أن بعض البلاد بالداخل ترتفع عن سطح البحر بضع مئات من الأمتار ، وأن هذا الارتفاع يجعل جوها رقيقاً مقبولا

على مـدار فصول السنة . لكن ارتفاعها هـذا لا يجعلها جبلية ، بل هى أراض منبسطة تجرى السيارة فى طرقها مستوية مئات الأميال تنبسط عن يمينها وعن يسارها المزروعات الممرعة ويمتد البصر منها إلى الأفق فلا يقف فى طريقها حائل من تل أو هضبة أو جبل إلا نادرًا .

لفتت هذه الطبيعة السهلة المنبسطة نظر الكثيرين من إخواننا الذين دعوا إلى ندوة غاندى ، ولفت نظرهم خصب الأرض المخضرة بالزروع النامية الممتدة إلى مدى البصر . ذهبت أنا والدكتور « رالف بانش » نزور تاج محل فى « أجرا » ، ونزور آثاراً أخرى فى المدينة المهجورة : « فاتح بورسكرى » . وأجرا تبعد عن « دلهى » مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلا ، و « فاتح بورسكرى » التى تبعد عن أجرا خمسة وأربعين ميلا . وقد كان انبساط الأرض وخصبها موضع حديثنا ونحن فى السيارة . كذلك ذهبت بالقطار أنا والدكتور « متين دفترى » نزور جامعة « عليكرة » ، وهى تبعد عن « دلهى » بعد أجرا عنها ، فكانت الطبيعة أمامنا ونحن ننظر من نافذة القطار منبسطة كذلك إلى مدى النظر . وكذلك كان الشأن حين تجوالنا أسبوعين داخل الهند . من ذلك تبينا أن الهند بلاد زراعية وفيرة الثروة كثيرة الخامات ، ولذلك كانت مطمح نظر المستعمرين فى عصور كثيرة .

ولم أقف أثناء تجوالى بالهند على تلك الغابات التى تصاد فيها النمور والحيوانات المفترسة . ولعل هذه الغابات أو الـ Jungles كما يسمونها ، تقع فى مناطق محدودة لم يتسن لى أن أذهب إلى أيها .

إذا كانت الطبيعة أول ما يأخذ بنظر السائح الغريب عن الديار فالآثار هى أشد ما يجذبه ويستهويه . فالسائح القادم إلى مصر أول ما يفكر

فى زيارة الحرم وأبى الهول وسقارة والأقصر . وحين نزلنا دلهى قيل لنا إن من جاء الهند ولم ير تاج محل لم يكن قد زار الهند . فأنت حين تذهب إلى فرنسا مثلاً فأول ما يعنيك أن تشهده ، وأول ما يعنى أهل فرنسا أن يطلعوك عليه ، هى الآثار الموجودة فى باريس وما حولها فى فرساى ، وفونتنبلو ، وفنسين ، وقصور اللوار فى أواسط فرنسا .

وزيارة الآثار لا يقصد بها إلى مشاهدة هذه المبانى وما تحتويه للمتاع بجمال العمارة وجمال ما بداخلها وكفى ، بل يقصد بها إلى معنى أدق من هذا بكثير . يقصد بها إلى معرفة صلة الإنسان بالحياة والوجود فى مختلف أدوار التاريخ . فهذه الآثار المصرية القديمة تصور حياة الفراعنة وتصورهم للحياة ولما بعد الحياة . والآثار الفرنسية تصور حياة فرنسا السياسية والإجتماعية وما طرأ عليها من هزات بلغت حد الثورات أحياناً . وما تقع عليه العين من آثار روما ، ما هو مهدم منها وما هو باق إلى اليوم ، يصور حياة الرومان القديمة وتطور هذه الحياة خلال العصور إلى وقتنا الحاضر .

والهند غنية بالآثار إلى غير حد . وآثارها تترك فى النفس ألواناً مختلفة من التصور الإنسانى للحياة فى عصور الإنسان المختلفة . ذلك بأن الهند طرأت عليها ألوان من الحضارات استقرت فيها وتركت من آثارها ما يقف النظر بالفعل . فهناك إلى جانب الآثار الهندوسية الأصلية – التى يرجع تاريخ بعضها إلى ألفى سنة أو أكثر – آثار المغول ، وآثار الفرس ، وغير هؤلاء وأولئك من المسلمين . كما أن هناك آثاراً حديثة أقام الهنود بعضها ، وأقام البريطانيون البعض الآخر . وكل هذه الآثار تقف النظر وتدعو إلى أعمق التفكير .

وأهم الآثار الإسلامية التى يشهدها الإنسان فى أرجاء الهند المختلفة المساجد والمقابر وتاج محل ، وهو أبهى هذه الآثار وأكثرها روعة وجلالاً ، إنما هى مقبرة شادها الملك « ساهجان » لامرأته ، كما أن أهرامات مصر مقابر شادها الفراعنة ليدفنوا بها . وأنت تشهد هذه العمارات البديعة التى أقامها ملوك المسلمين فى الهند ليدفنوا أو يدفن بعض ذويهم بها منتشرة فى كثير من المدن تشهدها فى دلهى . وفى أجرا ، وفى الكسندرا ، وفى « حيدر أباد » وفى مثلها من المدن الكبرى ذات التاريخ المجيد فى الهند ، وكثيراً ما نرى إلى جانب هذه المساجد الفخمة مساجد مستقلة غير متصلة بها . وهى فى ذلك تختلف عن مقابر المصريين المتصلة بالمساجد ، وتختلف كذلك عن مقابر الصالحين المتصلة بالمساجد فى العراق وفى تركيا . فقبور الصالحين فى مصر والعراق ، أو مقصوراتهم كما نسميها هى جزء من المسجد ، كما أن المقصورة النبوية جزء من المسجد النبوى بالمدينة . وعمارة المساجد تختلف بين مصر والعراق ، لكن الصالحين المدفونين هناك تقع مزاراتهم داخل المسجد ، على حين تقع مقابر الملوك المسلمين فى الهند منفردة عن المسجد ، يفصل بينها وبينه طريق يختلف سعة وضيقاً .

ولم أر مقابر متصلة بالمسجد إلا ما كان فى مسجد « حيدر أباد » ، على أن نظام المقابر فى هذا المسجد يختلف عنه فى مساجد مصر والعراق سواء منها مساجد أهل السنة أو مساجد الشيعة . فمقابر « حيدر أباد » هذه ، وهى ثلاثة ، تقع فى دهليز طويل يبلغ طوله ثلاثين متراً أو تزيد ، وهذا الدهليز مرتفع عن الأرض قرابة متر ، مبنى كله بالرخام ، والقبور تتوسطه مبنية بالرخام كذلك ، وقد غطى كل منها بستر من قماش

كثيف ، يرفعه سادن هذه القبور للزائرين ذوى المكانة من ضيوف الدولة .

فأما مساجد الهند فتختلف كذلك عن غيرها من مساجد المسلمين ، ولم أر لها شبيهاً إلا الجامع الأموى بدمشق . فأما مساجد العراق ، ومساجد إستانبول فتشبه مساجدنا هنا من حيث إنها مسقوفة كلها . أما مسجد دمشق ، وأما مساجد الهند ، فالجانب المتصل منها بالقبلة مسقوف يرتكز سقفه على عمد ثم يظل سائر المسجد مكشوفاً إلى السماء ، متصلا مع ذلك ببقية المسجد على أنه جزء منه .

ومساجد الهند التى رأيتها حسنة البناء كلها .

ولم أعنَّ نفسى بالبحث عن أى هذه المساجد لأهل السنة وأيها للشيعة ، وإن كنت قد عرفت فى كثير من المدن التى زرتها أن للشيعة مساجد ولأهل السنة مساجد أخرى . وفى البعض يزيد أهل السنة على الشيعة زيادة كبرى ، وفى البعض الآخر يزيد الشيعة على أهل السنة زيادة ظاهرة . ويرجع ذلك إلى التاريخ أكثر مما يرجع إلى أى سبب آخر . فقد نزل الفرس الذين جاءوا الهند بعض المدن وكثروا فيها فكانت الكثرة فيها للشيعة ، بينا كثر غير الفرس من المسلمين فى مدن أخرى فكانت الكثرة فيها لأهل السنة .

غير الآثار الإسلامية تقوم الآثار الهندوسية المختلفة ومعظمها معابد ، يرجع تاريخ بعضها إلى ألفى سنة أو أكثر كما قدمنا ، بينا أقيم البعض فى عهد حديث . وقد هجرت بعض هذه المعابد الهندوسية حتى تهدمت أو كادت ، بينا بقى بعضها إلى اليوم عامراً . ويتعذر على من لم يدرس عقائد الهند وفلسفة هذه العقائد أن يميز بين هذه المعابد والمذهب الذى تمثله . ولقد كانت مدة إقامتى بالهند قصيرة فلم أتمكن من دراسة تعاونني على هذا التمييز بين المعابد . ولكننى مع ذلك زرت الكثير منهـا ووقفت

عند بعضه معجباً بدقة عمارته ، معجباً كذلك بما بين ألوان العبادة فيه وبين التثليث المصرى القديم والتثليث المسيحى وبين التثليث الهندوسى من شبه ، وإن اختلف ما يرمز إليه التثليث الفرعونى والمسيحى ، والهندى ، خلافاً كبيراً .

وتبعث هذه المعابد وما فيها من نشاط صورة من حياة الماضى الهندى يجعله فى حكم الحاضر ونشاطه . زرنا المدينة المقدسة بنارس الواقعة على نهر « الجانج » أو « الجانجى » كما يسميه الهنود ، ومررنا بعد العشاء ببعض معابدها فألفينا العشرات بل المئات يذهبون إلى هذه المعابد ومع الكثيرين منهم ما يتقربون به إلى معبوداتهم ، يصنعون من ذلك ما كان يصنعه أسلافهم منذ مئات السنين أو ألوفها ، ويشهدون بذلك على أن هذا الماضى ما زال حياً كما كان ، وأن مظاهر الحضارة العربية لم تجن عليه فى قليل ولا فى كثير .

وزرنا عصر ذلك اليوم معابد تشهد ألوان العبادة فيها بأن الحياة الحديثة والعلم الحديث لم يجنيا على مقدسات الماضى السحيق حين كان الإنسان يتخذ الحيوان ويتخذ الأحجار إلى الله زلفى .

زرنا بعد ذلك فى « سارنات » على مقربة من مدينة « بنارس » ، معبد « بوذا » وآثاره . الشجرة التى يذكرون أن الإلهام أضاء أمامه بنوره وهو تحتها ، والهضبة التى آوى إليها ليعبد فيها ربه ، والمعبد الذى أقيم من عهد غير بعيد رسمت على جدرانه تعاليمه .

ومن عجب أن البوذية التى نشأت فى الهند لم يبق لها فى الهند أتباع إلا قليلين ، بينما ازدهرت فى بلاد أخرى تجاور الهند ، برما والتبت وبعض أنحاء الصين واليابان .

وما دمنا بصدد المعابد الهندية والحديث عنها فلا أستطيع أن أغفل أقربها عهداً وأقربها إلى تصوير التطور فى الحياة الروحية الهندية تطوراً

كان « المهاتما غاندى » صورته الحية . أقصد معبد « برلا » ، وهو المعبد الذى أقامه السرى الهندى برلا فى نيودلهى وافتتحه « المهاتما غاندى » . فهذا المعبد مجموعة تحتوى عدة معابد أحدها برهمى ، والآخر بوذى ، والثالث لمذهب آخر من المذاهب الهندية . وفى كل واحد من المعابد يرى الإنسان مكتوباً بالانجليزية وحدانية الله ، وتشير إلى ما كان يكرره « غاندى » من أن الله هوالحق ، وأن الحق هو الله ، وتذكر أن الخلق والحياة والانهيار والفناء مظاهر ، وأن البقاء لله وحده ، وأن الأرباب التى تصور الخلق والبقاء والتجدد إنما تصور صفات من صفات الله . أليست هذه المعانى الدينية المنقوشة على جدران هذا المعبد تمثل المعانى المشتركة فى الأديان كلهـا .

افتتح « غاندى » هذا المعبد . وكان « غاندى » رجلا متديناً شديد الإيمان بالله . طلب إليه بعضهم يوماً أن يكتب كتاباً يصور فيه فلسفته الدينية والسياسية فقال : إننى لست فيلسوفاً ، ولكننى رجل عمل . فإذا عرضت لى مشكلة استخرت الله فألهمنى طريقاً فسرت فيه فوفقنى إلى ما أبتغيه .

ليس هذا المقام مقام الحديث عن غاندى وآرائه . لكنى وأنا أقص مشاهداتى فى الهند لابد لى من أن أذكر أننى حين قرأت حياته أخذت منها أكثر من كل شىء بمجهوده لمقاومة عقائد تأصلت فى الهند خلال عشرات القرون بل مئاتها ، ونجاحه فى ذلك نجاحاً منقطع النظير ، حتى لقد كان أول ما دار بخاطرى وأنا بالطائرة فى طريقى إلى الهند أن أرى مبلغ هذا النجاح . قاوم « غاندى » نظام المنبوذين ، وقاوم عبودية المرأة للرجل ، فكان لذلك من أتباعه منبوذون كثيرون ، ونساء كثيرات . وقد سألت نفسى : أتأصل هذا فى الهند فأصبح بعض عقائدها ، أم تراه تطاير فعادت الهند إلى سابق

عهدها قبل « غاندى » ؟

وهنا أنتقل من الحديث عن مشاهداتى لطبيعة الهند ولآثارها إلى مشاهد الحياة الاجتماعية فيها .

تلطف حاكم ولاية « بومباى » فدعانى إلى طعام الغداء يوم وصولى إلى بومباى . فلما التقينا ودار بيننا الحديث سألته : ما شأن المنبوذين فى الهند اليوم ؟ وكان جوابه : لقد ألغى الدستور نظام الطبقات وقرر مساواة الهنود جميعاً . قلت : هذا حسن من الوجهة النظرية . فهل انتقل الأمر إلى الحياة العملية فأصبح الناس يعاملون بعضهم بعضاً وكأن لم يبق بين الطبقات فارق ؟ . وأجابنى الرجل فى صراحة : لا أستطيع أن أقول نعم . فما يزال من أهل الطبقات القديمة من لا يؤمن بهذه المساواة ، ولا يزال منهم من يرى المنبوذين نجساً . لكنى مقتنع أن هذا الاعتقاد مصيره إلى الزوال بعد أن أصبح أبناء المنبوذين يجلسون إلى جانب أبناء الطبقات الأخرى فى المدارس ومعاهد التعليم ، وبعد أن فتحت أبواب الوظائف الحكومية للأكفاء جميعاً بصرف النظر عن الطبقات التى ينتمون إليها ، وبعد أن أصبح من حق الجميع أن يعملوا فى الأعمال الحرة المختلفة ، وأن يكسبوا من المال ما تؤهله لهم كفايتهم . وللتطور الاقتصادى حكم على التطور العقلى ، كما أن التطور العقلى متأثر بأحوال العالم الذى تقاربت أجزاؤه . لهذا أعتقد أن هذا التمييز بين الطبقات صائر إلى الزوال عما قريب ، وإن كان زواله ليس معناه ألا تنشأ طبقات أخرى أساس منشئها الثروة أو الجاه أو ما شئت من أسباب التفرقة المختلفة .

والتقينا ونحن فى « بنارس » بالفيلسوف الهندى الدكتور « باجوات داسى » ، وهو رجل مهيب الطلعة يبلغ من العمر أربعا وثمانين سنة .

فحدثته فى أمر المنبوذين فكان جوابه غير جواب حاكم « بومباى » . قال : إن محاولة القضاء على الطوائف معارضة للطبيعة وللتكوين الإنسانى . فقد أثبت الإحصاء فى أمريكا أن ثلاثة وأربعين فى الألف فقط من بين المتعلمين تعليماً عالياً هم الذين يستطيعون السمو بتفكيرهم إلى مرتبة التجريد abstraction وأن غير هؤلاء من المتعلمين ومن غيرهم هم الذين يقومون بالتجارة أو بشئون الجيش ، وأن العدد الأكبر هم الذين يزاولون الأعمال الجسمانية كالزراعة والصناعة وما إليهما ومن هؤلاء من لا يستطيعون من هذه الأعمال إلا أقلها حاجة للكفاية أو المهارة . وتطبيق هذا الذى قرره الإحصاء بعد ذلك يعود بك إلى تصوير الطوائف فى الهند تصويراً يرجع إلى ألوف السنين . وإذا كان هذا التصوير قد فسد وأصبحت الطوائف العليا تعمل لكسب المال وهو محرم عليها فليس الذنب فى ذلك ذنب الفكرة المستندة إلى تكوين الإنسان الطبيعى ، بل الذنب ذنب الجماعات الإنسانية التى يهوى بها الضعف إلى درك لا يتفق وما فرضته الطبيعة بين الناس من اختلاف .

كان هذا جواب الفيلسوف الهندى الحكيم . وهو كما ترون جواب علمى لا يغير من واقع الحياة شيئاً . وواقع الحياة فى عصرنا الحاضر أكثر اتفاقاً مع الرأى الذى أبداه حاكم « بومباى » ، والذى تتجه إليه الديمقراطية وغير الديمقراطية فى العصر الحديث .

أما تطور شأن المرأة فى الهند فأعظم من تطور شأن الرجال . فقد تناول التطور فى أمر الرجال طائفة منهم بعينها . أما المرأة فقد دفعها التطور فى كل الطوائف إلى الأمام وإلى الحرية دفعاً لا يكاد الإنسان يصدقه . وكان أكبر الفضل فى هذا « للمهاتما غاندى » كذلك . كانت المرأة

الهندية إلى عهد غير بعيد فى حالة تقرب من الرق ، حتى لكانت تحرق مع زوجها حين يموت ، وكانت فى حياتها فى مركز يكاد يكون مركز الرقيق . فلما أشركها « غاندى » فى حركة المقاومة فى غير عنف ، وفى حركة العصيان المدنى ، أظهرت من قوة الاحتمال ما عجز عنه الرجال فى بعض الأحيان . هنالك ارتفعت الصيحة بأن للمرأة من الحق فى الحياة ما للرجل ، وسرعان ماانتقلت من ذلك إلى مساواته فى الحقوق كلها ، وفى الحقوق السياسية نفسها . ولعمرى إنها بذلك لجديرة . لقد كنت شديد الإعجاب بمدام « باندیت » شقيقة الرئيس نهرو منذ رأيتها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٧ ، وكنت أحسبها امرأة ممتازة لا يشاركها فى امتيازها رجل أوامرأة . فلما ذهبت إلى الهند وأتيح لى أن أتحدث إلى بعض السيدات هناك ، رأيت صورة إنسانية بالغة غاية الرقى فى تفكيرها وفى ذوقها الحياة . وزادنى أقتناعاً بذلك أن شهدت بعض مظاهر النشاط النسوى فى الحياة الاجتماعية وفى الحياة التربوية ، لا فى دلهى وحدها ، بل فى مدن مختلفة زرتها . وليس عجباً أن تنهض المرأة فى أمة كل شىء فيها ناهض أو متوثب للنهوض .

ذكرت أن الهند بلاد زراعية أرضها خصبة متنوعة الحاصلات . مع ذلك تعمل الحكومة المركزية متعاونة مع حكومات الولايات الهندية لمضاعفة الإنتاج الزراعى بإقامة السدود لتنظيم الرى ، وتعمل فى الوقت نفسه لتصنيع البلاد وتركيز الصناعات الكبرى فى الأجواء الملائمة لها . والصناعة هى الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى المعيشة فى الأمم ، وهى كذلك الوسيلة الأكيدة لشعور الأمم بمقدرتها الإنسانية على الدفاع عن نفسها . ولقد نشأت فى الهند صناعات ضخمة كثيرة فى مقدمتها صناعة النسيج

للقطن والحرير ، ومنها صناعة الحديد ، والخزف ، ومنها كذلك صناعة أجزاء الطائرات المختلفة . وقد زرت المدرسة التى يتعلم فيها الهنود صناعة الطائرات على يد أساتذة من الألمان ومن السويديين ومن غيرهم فأثارت غاية إعجابى وإذ لم تكن قد بلغت بعد أن تصنع محركات الطائرات فإن تقدمها المطرد يبشر بأنها ستبلغ أن تصنع هذه المحركات فى زمن قريب .

ولست فيما أذكر من ذلك مبالغاً فى التفاؤل . فإن نشاط الحركة العلمية فى الهند يدعو إلى الإعجاب ، بل يدعو إلى الدهشة . وقد كانت هذه الحركة العلمية أشد ما أثار اهتمامى مدة مقامى بالهند . لذلك زرت كل جامعة استطعت زيارتها فى البلاد التى مررت بها ، وتحدثت إلى الأساتذة والطلاب فيها . وأشهد لقد أدهشنى ما رأيته فى بعضها من تجارب علمية بالغة غاية الدقة .

كثيراً ما سمعت عن جامعة « عليكره » ، أو « أليجار » الإسلامية كما يسمونها بالإنجليزية . وقد ذهبت لزيارتها مع صديقى الدكتور « متين دفترى » بدعوة من مديرها الدكتور « زكير حسين » . وكان أكبر ظنى أن هذه الجامعة الإسلامية تعنى بالدراسات الإسلامية المختلفة ولا تتعداها . فلما بدأنا زيارتنا لم يتغير هذا الظن فى نفسى . فقد كان مسجد الجامعة أول ما سار بنا الدكتور « زكير » إليه . ثم إننا زرنا مكتبة الجامعة ورأينا فيها الكثير من الكتب العربية والفارسية ومن المخطوطات القديمة فلم يغير ذلك من ظنى الأول كثيراً . لكننى لم ألبث حين انتقلت مع الدكتور « زكير » إلى أقسام الجامعة العلمية أن تغير ظنى من أساسه . فهذه الأقسام العلمية فى الطبيعة والكيميا والرياضة العليا وغيرها تتناول أدق مشاكل العلم فى الوقت الحاضر . وبعض هذه الأقسام مما رتب للبحث العلمى

ينقطع له من أتموا دراساتهم العليا ويصلون فيه إلى نتائج تفخر بمثلها أكبر الجامعات فى أوربا وأمريكا ، ويشرف عليها بعض العلماء الأمريكان . وحسبى أن أذكر لكم من هذه الأبحاث محاولة ناجحة لقياس الضغط الجوى على ارتفاع مائة ألف قدم وآثاره الكهربية على ألواح تعد خصيصاً لهذا الغرض وترسل فى الجو على مناطيد صغيرة تسجل الآلات الدقيقة فيها هذه الآثار الجوية العجيبة .

وقد شهدت مثل هذه الأبحاث فى معاهد جامعة « بنجلور » وفى غيرها من الجامعات التى زرتها .

وكان أكبر اهتمامى فى هذه الزيارات الجامعية أن أبحث الوسيلة التى تستطيع البلاد الشرقية ، وتستطيع الهند معها ، أن تتبادل من ألوان التعاون العلمى والثقافى والفلسفى ما يزيد روابطها قوة إذ يجعل أبناءها أكثر معرفة بما فى غير بلادهم من اتجاهات وأبحاث . ولقد شعرت بأن هذا الموضوع ليس من اليسر بما يتصور الإنسان . قال أحد الأساتذة فى جامعة « بنجلور » بأن بحثاً كهذا البحث جرى لتقريب أجزاء الكمنولث البريطانى من الناحية العلمية والفكرية فلم يسفر عن نتيجة . كذلك تحدثت وأنا فى « بنجلور » مع سير « صمويل رانجادان » والسيد « جوردون » فى هذا الموضوع وذكرت لهما ما عرض من اقتراحات بعقد مؤتمرات وتبادل أساتذة وطلاب وتبادل مؤلفات وبحوث فتمنيا لى النجاح فى المحاولة التى أعالجها وإن بدا عليهما شىء من الشك فى هذا النجاح . وكم أود لو استطاع رجال جامعاتنا وعلماؤنا أن يتناولوا هذا الموضوع بالبحث فيما بينهم . فالصلات العلمية والأدبية والفنية بين الأمم هى التى تكفل ارتباطها بأوثق رباط .